

ثانياً: النقد الأدبي في العصر الجاهلي

وُلد النقد الأدبي مع مولد الشعر، ونشأ معه، وهذا أمر طبيعي فإنّ الشاعر ناقد بطبعه، يفكر ويقدّر ويختار، ولهذا كان أقدر من غيره على فهم الصنعة الشعرية، وعلى إدراك أسرار القبح أو الجمال. ومن هنا كان من الصعب أن نحكم حكماً موثقاً على الصورة الأولى التي نشأ عليها النقد الأدبي ذلك لأنه ارتبط بالشعر في نشأته.

ومعلوماتنا عن النهج الأول للشعر العربي لا تتجاوز المائة والخمسين عاماً التي سبقت ظهور الإسلام، والشعر العربي لم يبدأ حياته على هذا النظام الكامل الذي وجدناه عليه، وذلك لأن طبيعة الحياة تآبى الطفرة، ولا تسلم إلا بسنة التطور والارتقاء فمن الطبيعي أن هذا الشعر قطع أحقاباً طويلة حتى بلغ هذه الدرجة من النضج والاستواء التي ألفتها عليها.

وحين نضج هذا الشعر، واكتملت له صورته الفنية، فُتِن به العرب فتراووه وتدوّقوه، وتغنّوا به، ونظروا فيه تلك النظرة التي تتلاءم مع حياتهم وطبيعتهم، وبعدهم عن أساليب الحضارة، فأعلنوا استحسانهم لما استجادوا، واستهجانهم لما استقبحوا في عبارات موجزة وأحكام سريعة.

ومن هنا وجد النقد الأدبي في الجاهلية، ولكنه وجد هيناً يسيراً ملائماً للشعر العربي نفسه، فالشعر الجاهلي احساس محض أو يكاد، والنقد كذلك كلاهما قائم على الانفعال والتأثر. وقد تكون فكرة المفاضلة بين الشعراء أو تتبّع أخطائهم إلى جانب استحسان قصائد وتفضيلها عن بقية ما تجود به قرائح الشعراء أبرز مظاهر النقد الجاهلي.

1_ شواهد نقدية من العصر الجاهلي:

1-1- روى الأصمعي أن النابغة الذبياني (زيد بن معاوية) كانت تُضرب له قبة بسوق عكاظ فيأتيه الشعراء، ويعرضون أشعارهم عليه، فأتاه الأعشى، فأنشدته، ثم أتاه حسان فأنشدته:

لنا الجفّنات العُرُّ يلمعن بالضحي وأسيفنا يقطنن من نجدة دما

وُلدنا بني العنقاء وابني محرّق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: لولا أنّ أبا بصير، يعني الأعشى، أنشدني لقلت إنّك أشعر الجنّ والإنس، فقال حسان: أنا _ والله _ أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة: يا بني، إنّك لا تحسن أن تقول:

فَاتِكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خَلْتُ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ

قال: ويُروى أن النابغة قال له: أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن وُلدت، ولم تفخر بمن وألدك (وفي مصادر أخرى: أقللت أسيافك ولمعت جفانك، وقلت يلمعن بالضحي ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أحسن، قلت يقطن ولو قلت يجرين لكان أفضل).

ويُستفاد من هذا الخبر أنه كان في بعض مناطق الجزيرة العربية ما يُشبه النوادي الأدبية في زماننا، إذ يعرضُ الشعراء بضاعتهم على جمهور يتوافر بين أفرادهم من يُدرك جمال الشعر وروعه، ويُصدر أحكامه عليه.

1-2- يروي المرزباني في الموشح أنه: تحاكم الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وعبد بن الطبيب، والمخبّل السّدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر، أيهم أشعر؟ فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك ك لحم أسخن، لا هو أنضج فيؤكل ولا تُرك نيئاً فينتفع به، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر، يتلأأ فيها البصر، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر، وأما أنت يا مخبّل فإن شعرك قصّر عن شعرهم، وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أُحكّم خرزها فليس تقطر ولا تمطر.

1-3- يقولون إن علقمة الفحل وامرأ القيس تنازعا الشعر، وادعى كلاهما أنه أشعر من صاحبه فتحاكما إلى أم جندب زوج امرئ القيس. فقالت لهما: قولا شعرا على روي واحد، وقافية واحدة تصفان فيه الخيل، ففعلا ثم أنشدها. فقضت لعلقمة على امرئ القيس. لأن امرأ القيس يقول:

فَللسَّوِّطِ أَلهوب، وللسَّاقِ دَرَّةٌ وللزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعٌ أَخْرَجَ مُهْذِبِ

وأما علقمة فيقول:

فَأَدْرِكُهُنَّ ثَانِيَا مِنْ عَنَانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ

فعلقمة وصف المثل الأعلى لجري الفرس، فبالغ إذ جعل فرسه يُدرك الصيد، وصاحبه (علقمة) الراكب عليه ثنى عنانه، ولم يضربه بالسوط ولم يكلفه فوق طاقته.

أما امرؤ القيس فقد وصف واقع فرسه فبيّن أنّه ألهبه بسوطه، وأجهده بزجره، ولولا الضرب والزجر ما أسرع الفرس.

2_ صور النقد في العصر الجاهلي :

يمكن تقسيم النقد الجاهلي إلى نقد ذاتي تأثري مبعثه الإحساس القائم على الذوق الفطري ونقد مبعثه الروية والأناة.

ومن صور النقد الذاتي التأثري:

1_ **النقد اللغوي:** وهو القائم على نقد الخطأ في الاستعمال اللغوي من ذلك ما رُوِيَ عن أبي عبيدة حيث قال: مرَّ المسيَّب بن علس بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستنشدوه، فأشدهم:

ألا أنعم صباحاً أيها الربيعُ واسلمَ نحييك عن شحطٍ وإن لم تُكلمَ

فلما بلغ قوله:

وقد أتاسى الهمَّ عند أدكاره بناجٍ عليه الصَّعيرةُ مُكدمَ

فقال طرفة_ وهو صبي يلعب مع الصبيان _ : استنوق الجملُ فقال المسيَّب: يا غلام، اذهب إلى أمك بمؤبدة، أي داهية. والخطأ هنا في نسبة الصَّعيرةِ إلى الجمل، وهي سمة في عنق الناقة لا البعير. فأدرك طرفة بفطرته أنّ كلمة " الصَّعيرة " وُضعت للدلالة على تلك السمة في عنق الناقة، فلما ابتعد بها الشاعر عن أصل وضعها من غير سبب معقول، فطن إلى ذلك بفطرته ونبه الشاعر إلى خطئه بهذه العبارة التي صارت مثلاً.

2_ **النقد المعنوي:** لقد كان العربي شديد الحساسية بلغته دقيق الإصابة فيها، وكان يدرك أن اللغة وُضعت للتعبير عن ذاته وعن إحساسه وعن قيمه ومثله، فإذا طابقت لغته المعنى الذي عبّر عنه مطابقة سليمة رضي عن ذلك واطمأن إليه، وإن ابتعدت عباراته عن إصابة الهدف بأن جنح إلى مبالغة لا يرضاها أو انحرف إلى معنى يراه بعيداً عن قيمه العامة ومثله التي ارتضاها، رفض ذلك واستهجنه، ومثال ذلك شاهد النابغة الذبياني وحسان بن ثابت، فقول النابغة: أقللت جفانك وأسيافك. يدل على وجوب التعبير عن المعنى باللفظ الذي يؤديه أداءً كاملاً، بحيث ينهض اللفظ بحق المعنى والعرب تستحسن المبالغة في مواطن معينة، والفخر من هذه المواطن التي يستحب فيها. وقول النابغة: فخرتَ بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، يدل على وعي بتقاليد العرب وعاداتهم التي تعتد بالأباء والأجداد وتقيم وزناً لحسب القبيلة ونسبها.

وتتحدّد المقاييس النقدية التي اعتمد عليها النابغة وغيره من نقّاد العصر الجاهلي في نقدهم لمعاني الشعراء على النحو الآتي:

1_ النظر في المبالغة وملاءمتها للطبع الجاهلي.

2_ الملاءمة بين الألفاظ ومعانيها في التراث الجاهلي.

3_ النظر في وجود الشعر من حيث أداء وظيفته الجمالية (حكم أم جندب لعلقمة بالتفوق والشاعرية، يدلّ على أنّها تريد من الشاعر أن يصور الكمال الواقع في الحياة لا الواقع فعلاً).

3_ النقد العروضي: ارتبط الشعر العربي ببعض الأنغام الموسيقية تأتلف في الوزن والقافية، وقد اتفق عليها الشعراء وتعودت عليها الأنواق العربية في الجاهلية، وكان ممّا يُلام عليه الشاعر الخروج عن هذه الأنغام، أو النشاز الذي ينتج عن الاضطراب فيها من ذلك خطأ في القافية يُعرف في المصطلح العروضي بالإقواء ويعني اختلاف حركة الروي في القصيدة الواحدة من الكسر إلى الضمّ

يقول ابن سلام عن شعراء الطبقة الأولى الجاهلية: ولم يُقو من هذه الطبقة ولا من أشباههم إلاّ النابغة في بيتين: قوله:

أمن آل مية رايح أو معتدي عجلان ذا زادٍ وغير مزودٍ
زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود

وفي قوله:

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

فقدم المدينة فعيب ذلك عليه، فلم يابه لذلك، حتى أسمعوه إياه في غناء....، فقالوا للجارية: إذا صرت إلى القافية فرتلي فلما قالت: الغراب الأسود و مزود، وباليد، ويُعقد علم وانتبه فلم يعد فيه، وقال: قدمت الحجاز وفي شعري ضعة ورحلت عنها وأنا أشعر الناس.

4_ المفاضلة بين الشعراء: فكرة المفاضلة بين الشعراء من الفكر النقدية الرئيسية في العصر الجاهلي، ويبدو أن المفاضلة تشيع في جوّ يكثر فيه الشعراء وتتقارب مستويات إجادتهم، وقد يكون من الصواب القول إنّ المفاضلة تعبّر عن افتتان يستبدّ بالنفس في اللحظة التي هي فيها. فمن صور نقد الشعر الذاتية عند الجاهليين تقديمهم شاعرا على غيره تقديمًا مطلقًا دون إبداء علة معقولة تسوغ التقديم أو تعزز الحكم، وتخرج به عن حيّز الذاتية إلى دائرة الموضوعية السديدة ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قول لبيد_ وقد سئل من أشعر الناس؟ فقال: الملك الضليل، قيل: ثم من؟ قال: الشاب القليل، قيل: ثم من؟ قال: الشيخ أبو عقيل_ يعني نفسه.

أما النقد الذي مبعثه الروية والأناة فمن صورهِ:

أ_ تنقيح الشعر: الشعر عند بعض الشعراء ليس تدفقا تلقائيا يستسلم فيه الشاعر لقرينته، بل هو ضرب من المعاناة و المكابدة و الطلب الملح، ولا يكتفي الشاعر بما أتاه لأوّل وهلة، بل يتأمله بعينه البصيرة فيُسقط منه، ويغيّر، ويضيف حتى يخرج قريبا من التمام، وخير من يمثل هذه العملية الشاعر الكبير زهير بن أبي سلمى الذي تسمى قصائده الطويلة بالحواليات ويقال: إنّه كان يُعدّها في أربعة أشهر، وينظر فيها و يراجعها و ينقح فيها و يهدّب في أربعة أشهر ثانية، ثم يعرضها على أهل الرأي الصائب و الذوق السليم، و الثقة المخلصة في أربعة أشهر أخرى ليقدموا نصحهم و قد يستجيب لهم فيغيّر و يبدّل، متى اقتنع بذلك، وما يزال كذلك يبدع وينقد و يسمح للأخريين بنقده حتى تستوي له في حول كامل وقد اشتهر بهذه العملية من الشعراء الجاهليين أوس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى، وكعب بن زهير و الحطيئة، وطفيل الغنوي وغيرهم ممّن سمّوا عبيد الشعر.

ب_ الرواية: تعني الرواية أن يلازم الشاعر الناشئ الشاعر المُفلق، يسمع منه، ويستظهر شعره و يذيعه بين الناس ، فقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعرا يروي له ولغيره حتى يفتق لسانه، وتتسلسل مدرسة الرواة في طبقات أو حلقات وكلّ حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلّم إلى لاحقتها، ومن ثمّ نشأت السلاسل الشعرية في كثير من القبائل مثل سلسلة أوس بن حجر الذي كان زوجا لأمّ زهير بن أبي سلمى، فنشأ هذا راوية لأوس، وعن زهير أخذ ابنه كعب، وسلسلة المرقش الأكبر عمّ المرقش الأصغر عمّ طرفة بن العبد، وسلسلة الهذليين، وقد كان الرواة كالموسوعات في تسجيل الشعر وحفظه، ومعرفة الشعر و أخباره وهم المحامون عن شعرائهم يذودون عنهم ويدافعون عن شعرهم.

ج_ الاختيار: والاختيار من العمليات النقدية التي يتوقّر فيها الذوق والعقل معًا، وهي تصدر عن روية وأناة. واختيار العرب للمعلقات مثال على ذلك.

3_ خصائص النقد في العصر الجاهلي: تميّز النقد في العصر الجاهلي بمجموعة من الخصائص نذكر منها:

1_ الذوق الفطري: فقد اتّسمت الأحكام النقدية في العصر الجاهلي بالذوق الفطري، إذ لم تكن للنقد أصول معروفة، ولا مقاييس مقرّرة بل كانت مجرد لمحات ذوقية، ونظرات شخصية تقوم على ما تلهمهم به طبائعهم الأدبية، وسليقتهم العربية.

2_ الارتجال في الأحكام: وهي سمة تتصل اتصالا مباشرا بالذوق الفطري الذي يعد أساسا هاما في صدور الأحكام النقدية، فبعد أن يتذوق الناقد الشعر يصدر حكمه إما ارتجالا وإما بعد أناة وروية، ولكن السمة الغالبة في النقد الجاهلي هي سمة الارتجال.

- 3_ الجزئية: والمقصود بها تناول الناقد لجزئيات من الجوانب الفنية للقصيدة، كجانب الألفاظ أو جانب المعاني أو جانب الوزن مثلا دون تناوله للقصيدة كلها تناولا متكاملا.
- 4_ العموم: ونعني به أن يطلق الناقد في أحيان كثيرة أحكامه، ويرسل آراءه دون أن يذكر سببا أو علة لذلك الحكم.
- 5_ الإيجاز: لقد كانت الأحكام النقدية الجاهلية في الكثير من الأحيان موجزة، يفهم منها ما يراد ولكن دون شرح أو تفصيل.